حياة المفتى الاكبر

كما يرويها كاتب انجليزى

كتبه : ا . ر . يارماه
ترجمه : على زكريا

كنت أحتسى القهوة - فى مكان ما بالقاهرة - فى آنية صغيرة أنيقة ، وكنت مرهفاً سمعى للحديث الهادىء والصوت الرخيم من تلك الشخصية الثائرة فى السياسة العربية الحديثة .

كانت يداه بيضاوان رقيقتان وصوته هادىء ولهجته ودية ، وكنت وأنا أتجاذب معه أطراف الحديث ، أفكر فى حياته الغريبة فى هذا الربع الأخير من القرن المفعم بالقلاقل والحروب .

لقد أكمل تعليمه فى مدرسة بالقدس ثم فى الأزهر - تلك الجامعة الاسلامية الكبرى التى مضى عليها أكثر من ألف عام - وقد خدم فى الجيش التركى كضابط ، ثم تولى عدة مناصب فى فلسطين ، حتى إذ أعلن وعد بلفور للشعب اليهودى عام ١٨٩١ انقلب المفتى على بريطانيا ، وتعرض لشوط طويل من السجن نظراً لنشاطه ضد الصهيونية ، ولكن استطاع أن يهرب إلى شرق الأردن ، تلك المملكة الصغيرة التى يحكمها الآن الملك عبد الله .

ولكن القدر المحتوم أتاح أن يعود المفتى إلى فلسطين وقد عفى عنه بفضل مساعى السير هربرت (اللورد صمويل الآن) وانتخب بعد ذلك مفتياً للديار الفلسطينية ، وصار فيما بعد رئيساً للعلماء فى المجلس الاسلامى الأعلى ومشرفاً على كل القضاة الدينيين .

وكان هذا الزعيم الدينى فناناً أيضاً فقد أشرف على إصلاح المسجد الأقصى المعروف ، كما كان سياسيا فقد كان فى الوقت نفسه زعيما للهيئة العربية العليا .

ثم حاولت الحكومة القبض عليه نظراً لنشاطه الملحوظ ولكن الحاج أمين الحسينى هزأ بأمر اعتقاله وقضى أسبوعين أو ثلاثة فى جامع عمر عند جدار المبكى . ثم أدهش العالم حينما علم أنه نزل ببيروت فى لبنان ، متنكراً بزى بدوى بسيط

وعند ماقامت الحرب سبق المفتى فرنسا بهربه إلى العراق وقوبل هناك بكل مظاهر الاحتفاء والتكريم وأقيمت له الاحتفالات وأعدت له التسهيلات اللازمه لعيشة مريحة ، ولكنه منع من أى نشاط سياسى .

وفى ذلك الوقت ثار رشيد عالى الكيلانى ضد الحلفاء - ابريل سنة ١٩٤١ - وفشلت ثورته فهرب ثم حكم عليه العراقيون - فيما بعد بالاعدام، ولم يبق للمفتى إلا أن يهرب أيضا فذهب إلى طهران .

وعند ماتزلت جيوش البريطانيين والسوفييت فى إيران تعهدت إيران بالقبض عليه ولكن المفتى ابتسم ساخراً ، وكان فى اليوم التالى فى روما .

وفى ديسمبر سنة ١٩٤١ قابل المفتى هتلر فى برلين.

وفى عام ١٩٤٥ كان الحلفاء يتسابقون فى احتلال الأراضى الألمانية ، فما كان من المفتى إلا أن يتجه نحو سويسرا يصاحبه مستشاره الطبى ، وقد قبض على الطيار الألمانى وطلب من المفتى أن يغادر البلاد : وفى جنوب ألمانيا اعتقلته الجيوش الفرنسية ومكث فى باريس سنتين ، وأنا أعتقد أن المسيو جورج بيدو قد أعطى تعهداً شخصيا للمستر بيفن بألا يغادر المفتى باريس :

وفى فترة من الزمن مدتها أسبوعان كان المفتى يشكو من مرض ألزمه الفراش ، وفى هذا الوقت نفسه كان هناك رجل سورى حليق الذقن يدخل طائرة أمريكية ، وبعد يومين أو ثلاثة تمكن هذا السورى من الذهاب إلى قصر عابدين ، منزل الملك فاروق بالقاهرة لاجئا إليه بوصفه مواطنا مسلما وقد أصغى إليه الملك وأكرم وفادته .

والمفتى كما يبدو من تصريحاته، لايضمر كراهية للحلفاء أو الأمريكيين أو اليهود الذين لايناصرون الصهيونية .

وهو - فى رأيى قد أعرب فى صراحة عما ينوى العرب عمله حتما تنفذهيئة الأمم مشروع التقسيم بقوله (إن الشعوب العربية والاسلامية ستقاومه بكل مالديها من وسائل) .